-7-

العلاقة بين إيران ومصر

منذ عام ١٥٠٠م ظلت مصر تستضيف أناسا من شعوب وثقافات مختلفة بما فى هذا الإيرانيون والأتراك واليونانيون والإيطاليون. ترجع العلاقة بين مصر وإيران إلى ما بين عامى ٥٥٠ و٤٨٦ ق م لدى حفر قناة تصل ما بين البحر الأحمر ونهر النيل وتربط بهذا البحر الأبيض بالمحيط الهندى، والتى أتم حفرها داريوس الأول الفارسى. كما كان للمذهب الإسماعيلى الشيعى بقيادة عبدالله بن ميمون، والذى عُرف بالقدّاح، وكان من أصول إيرانية، تأثيره فى قيام الخلافة الفاطمية (٩٠٩- ١١٧١) فى مصر وشمال إفريقيا. وأثناء حكم المستنصر (١٣٥- ١٠٩٤)، قام الشاعر والمفكر الإيرانى الكبير ناصر خسرو بزيارة القاهرة، وهناك اعتنق الشيعية الإسماعيلية. وكما أسلفنا فى الفصل الثالث، تمتع المذهب الشيعى بالانتشار والقوة، فى تلك الآونة، فى شمال إفريقيا وجنوب سوريا، فيما كانت إيران مركز الفقه السنى، لكن، حينما تراجع المذهب الشيعى فى شمال إفريقيا وسوريا، أصبحت إيران مركزا له.

obeikandl.com

ماثل التطور الرأسمالى فى مصر القرن التاسع عشر نظيره فى إيران؛ وكان يحفز هذا التطور بشكل أساسى احتياج الأسواق الرأسمالية الغربية للاستيراد من هذين البلدين. وكما ذكرنا فى الفصل الأول، تمت عملية إدماج إيران فى الاقتصاد العالمى من خلال النفط، وإدماج مصر من خلال زراعة القطن وتصديره لأوربا. أدى توسع زراعة القطن فى مصر إلى تحويل الأراضى الزراعية إلى ملكية خاصة وإعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية الزراعية.

وكحال إيران والعراق، لعب علماء الدين فى مصر دور الوسيط بين الدين وعامة الشعب وشارك كثيرون منهم فى الحركات المناهضة للاستعمار. كان محمد على، والى مصر ما بين عامى ١٨٠٥ و١٨٤٨، قد

obeikandl.com

شكل الاقتصاد الحديث فى مصر والمجتمع الحداثى وتحدى الهيمنة الاقتصادية الأجنبية على مصر. وفى عهده كان العلماء يتلقون دخولا من عائدات الضرائب الزراعية ومن الأوقاف، وكان يستشيرهم فى الأمور السياسية، بيد أنه، فيما بعد، أخضعهم، وجعلهم موظفين يتلقون رواتبهم من الدولة.

قام المستثمرون الأوربيون بتطوير بنية أساسية حديثة فى مصر، وقاموا بإعادة حفر قناة السويس الذى تم عام ١٨٦٩. عمل رأس المال الأجنبى على تسهيل التنمية الاقتصادية فى تلك الفترة، حيث كان الأجانب يملكون الصناعات ووسائل النقل والمواصلات بشكل أساسى ويتحكمون فيها، وراكمت مصر ديوناً مهولة لحساب المدنيين الأوربيين.

نجم عن هذه الأوضاع حركة مقاومة جماهيرية فى مواجهة السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية، وفى عام ١٨٨٢، غزت بريطانيا مصر بذريعة حماية المصالح الأوروبية والحفاظ على قناة السويس. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الغالبية الساحقة من الفلاحين المصريين معدمين فيما ظهرت طبقة جديدة من كبار ملاك الأراضى وغدت هى الطبقة المسيطرة حتى قانون الإصلاح الزراعى عام ١٩٥٢.

لم يقتصر أثر علاقات السوق على المجال الاقتصادى وحده بل أيضا على توزيع السلطة والحياة الثقافية. طوال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تحدى العمال والفلاحون العلاقات الاجتماعية القائمة على الاستغلال، ولعبت الاحتجاجات والتظاهرات والإضرابات العمالية دورا مهما فى تنمية التوجهات القومية والوطنية. كان اللورد كرومر هو المندوب السامى البريطانى فى مصر فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٩ و١٩٠٧، ورأى أنه يجب تحرير النساء المصريات من الإسلام ومن قبضة الرجال المسلمين[!!]، وعلى الرغم من ذلك، عارض تعليم المصريات، بل وحتى عارض أن تعالج الطبيبات المختصات النساء قائلاً: إن القاعدة فى أنحاء العالم المتحضر هو أن يتولى الأطباء الرجال أمور العلاج. مثل هذه المواقف والأوضاع وغيرها، استفزت النساء بحيث لعبن دورا مهما فى الحركة الوطنية.

كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ – ١٨٩٧) الذى وُلد بإيران وتلقى تعليما شيعياً من رواد الحداثة الإسلامية. عمل على تغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية وركز على مقاومة الهيمنة الغربية. كتب بالعربية وعاش بمصر من عام ١٨٧١ إلى عام ١٨٧٩ حيث قام بتدريس الفلسفة الإسلامية ونادى بمقاومة الاستعمار

إلى أن طرده البريطانيون من مصر ١٨٧٩ لخطاباته المعادية للبريطانيين. وبعد طرده واصل أتباعه اشتغالهم بالأنشطة الوطنية. عمل الشيخ محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥) مع رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) واللذان تأثرا بالأفغانى رغم اختلافهما - على ريادة مدرسة الفكر الإسلامى الحداثى التى أصبحت هى السائدة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

عارض عبده ورشيد رضا الحكم البريطانى فى مصر، وكانا من الإسلاميين الإصلاحيين الذين يؤمنون بتوافق الإسلام مع الحداثة. يذهب عاصف البيات إلى أن القرائن التاريخية تثبت أن التوجهات الإصلاحية تلك وُجدت بين أهل السنة مثلما وجدت بين الشيعة. دعا عبده إلى اكتساب العلوم الحديثة وإلى المساواة بين الرجال والنساء وإلى تعليم المرأة الذى كان البريطانيون قد كبحوه. نقد إغلاق باب الاجتهاد، وتعتبر أعماله إعادة تأويل للفكر الإسلامى بما يتناسب مع العالم الحديث. كان لأفكاره آثار واسعة واستمرت تشكل فكر الإصلاحيين الإسلاميين فى المجتمعات ذات الغالبية المسلمة وغيرها.

وكما الحال فى إيران ولبنان والعراق وفلسطين، ظلت النساء تلعب دورا مهما فى التاريخ الاجتماعى لمصر. يمكن تقصى الحركة النسائية فى مصر إلى القرن التاسع عشر حينما كانت النساء من أمثال ملك حفنى ناصف يكتبن مقالات بانتظام فى الصحف المصرية. وفى بداية القرن العشرين تعاظمت الأنشطة النسائية وظهرت حركات نسوية مختلفة حيث أنشأت النساء جمعيات نسائية وشاركن فى ثورة ١٩١٩ الوطنية التى أدت إلى صياغة دستور ١٩٢٣. لُقبت صفية زغلول، زوجة الزعيم المصرى سعد زغلول بأم المصريين لقيادتها الحركة الوطنية

النسائية، وأيضا، كان لهدى شعراوى دور رائد فى الحركة النسائية المصرية وإنشاء الجمعيات النسائية، كما لعبت المسيحيات دورا مهما فى تلك الحركة. أثيرت النقاشات حول تحرير المرأة بين الإصلاحيين الإسلاميين وفى المجلات والدوريات النسائية، وطرحت للجدل قضايا تعدد الزوجات والزيجات التى ترتبها الأسرة وتُفرض على الفتيات وقضايا تعليم النساء.

كان للقوميين العلمانيين ولليسار دور مهم أيضا، فى عام ١٩١٩، جسد حزب الوفد المصرى الكفاح من أجل الاستقلال وتمتع بتأييد جماهيرى هائل بين الطبقات العاملة فى الريف والمدن. بيد أن الحزب فقد سيطرته على الحركة العُمالية. وأدت توجهاته الليبرالية إلى إثباط غالبية الشعب، ثم تقلصت شرعيته أكثر كممثل لعامة الشعب بموقفه المهادن للملك، وعجزه عن مقاومة هيمنة كبار ملاك الأراضى(١). بعد الحرب العالمية الثانية، فشل الوفد فى قيادة جماهير الشعب الذين كانوا يطالبون بنهاية الهيمنة البريطانية والاستقلال وعجز عن توفير قيادات لحركة المقاومة الوطنية الجماهيرية.

فى تلك الفترة تنامت قوة التنظيمات الشيوعية وتأثيرها. تبنى الشيوعيون، فى الثلاثينيات وبداية الأربعينيات مطالب العمال ونظموا الإضرابات عن العمل والطعام، والمسيرات الاحتجاجية والاعتصامات ووفروا الشرعية الوطنية للحركة العمالية. بيد أن الحركة الشيوعية تشظت فى منتصف الأربعينيات وفشلت فى تطوير دعم شعبى قاعدى لها. أيضا، أدى القمع السياسى إلى إنزال نكسات كبرى بمختلف الحركات الوطنية والشيوعية التى انتهى بها الأمر إلى حل نفسها

(١) كان عدد من زعامات الوفد من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى. (الترجمة)

والاندماج فى الدولة الناصرية فيما بعد. فقدت الحركة الشيوعية شعبيتها بخاصة لتبعيتها للاتحاد السوفييتى وتبنيها تصديق ستالين على تقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل.

ظهرت جماعة الإخوان المسلمين، التى كان حسن البنا قد أسسها عام ١٩٢٨، كمنافس للوفديين القوميين وللشيوعيين. أضفى حسن البنا، الذى كان من أتباع الأفغانى، وخطابه بعدا إضافيا على تقاليد الكفاح السياسى الإسلامى. كان قائدا كاريزميا، ولعبت الجماعة، تحت إرشاده، دورا مهما فى النضال ضد الاستعمار البريطانى. كان البنا يؤمن بالانتخابات البرلمانية، وترشح فى عامى ١٩٤٢ و١٩٤٥ ولم يفز. أولت الجماعة أيضا اهتماما بقضايا النساء وأنشأوا فرقة الأخوات المسلمات عام ١٩٣٢، التى تركزت أنشطتها فى تلك الفترة على الأعمال الخيرية والرعاية الصحية والتعليم. كانت الجماعة فى الثلاثينيات تمد العاطلين عن العمل بالمساعدات المالية، والتزموا بتعبئة المجتمع المدنى من خلال المساجد والجمعيات الشبابية والأنشطة الرياضية والتنظيمات النسائية والمستوصفات وأنشطة العمل التعاونية، وأدى فشل الليبراليين والشيوعيين فى الأربعينيات إلى ترك الساحة للأخوان المسلمين كبديل قابل للحياة.

إيران ومصر:

تم دعم العلاقات بين إيران ومصر على مستوى الدولة عام ١٩٣٩ حينما تزوج محمد رضا، شاه إيران، بالأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق، وكان الملكان لا يتمتعان بشعبية فى بلديهما بسبب إذعانهما للهيمنة الأجنبية، كما زاد استياء الشعب المصرى من الملك فاروق بعد هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين. وخلال تلك الفترة، قوّى الإسلاميون فى

إيران ومصر علاقاتهم. فى عام ١٩٤٧، قام محمد تقى القمى، عالم الدين الإيرانى، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، بمحاولات للتقارب بين المذهبين السنى والشيعى. قام القمى بتدريس الفقه الزيدى والمذهب الاثنى عشرى الشيعى جنبا إلى جنب مع فقه المذاهب الأربعة السنى. ثم قام الإخوان المسلمون عام ١٩٥٤، فى محاولة لمتابعة تلك الجهود، بدعوة نواب الصفوى، قائد تنظيم فدائيى إسلام الإيرانى لحضور مؤتمر بجامعة القاهرة. وفى عام ١٩٥٩، تم الاعتراف بالشيعية الإثنى عشرية خامس مدرسة فقهية إسلامية (إلى جانب المذاهب السنية الأربعة) وشجعت الجامعة الأزهرية تدريس اللغة والآداب الفارسية. فى تلك الأثناء، كان قد حدث عام ١٩٤٨ أن اغتال الإخوان المسلمون النقراشى، رئيس الوزراء المصرى، وردت السلطات المصرية باغتيال الشيخ حسن البنا.

وكما أسلفنا فى الفصل الأول، كان تأميم مصدق للنفط فى إيران عام ١٩٥١ (الذى أعقبه انقلاب دبرته السى آى إيه وM16)، وتأميم جمال عبدالناصر لقناة السويس عام ١٩٥٦ قد جعلا من مصدق وناصر بطلين شعبيين فى كل المنطقة وكانت شعبية عبدالناصر فى إيران تماثل شعبية مصدق فى مصر تقول آن ألكساندر:

«غمرت مشاعر الفرح والابتهاج المصريين واندلعت التظاهرات لرؤية التقنيين البريطانيين يغادرون منشآت عبدان بعد تأميم الحكومة الإيرانية لشركة النفط الأنجلو/ إيرانية فى أغسطس ١٩٥١ ورأوا فى الحالة الإيرانية نموذجا ممكنا لصراعهم للتحرر الوطنى. بيد أن المسئولين البريطانيين والقادة العسكريين، تبينوا وقد تملكهم الذعر، وفيما كانوا يفكرون فى إرسال قوات عسكرية لعبدان، صعوبات عمل ذلك نظرا لأنه

كان عليهم التعاطى مع التظاهرات الشعبية فى أنحاء مصر والهجمات الفدائية فى منطقة القنال فى آن».

بعد انقلاب السى آى إيه فى إيران، اعتبر الشاه جمال عبدالناصر أداة للشيوعية، واعتبر عبدالناصر الشاه أداة للإمبريالية. فى عام ١٩٥٢ أُجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش وتم إلغاء الملكية عام ١٩٥٣ وأتاحت الحركة الوطنية المجال للضباط الأحرار الأخذ بزمام الأمور. فى عام ١٩٥٤، أجبرت الحركة الجماهيرية وقوتها البريطانيين على الانسحاب من قناة السويس. وبعد تأميم القناة، ضمن ناصر الحقوق الدولية للمرور من القناة ودَفَع التعويضات لكثيرين من حملة الأسهم الأجانب.

كان عبدالناصر ورفاقه، فى السنوات المبكرة يتشاركون مع الشيوعيين والإخوان فى كثير من الرؤى. لكن سرعان ما دبت الخلافات بين ناصر والشيوعيين والإخوان، والتجأ الشيوعيون إلى العمل السرى فيما أُلقى بقيادات الإخوان فى المعتقلات. فى البداية، كان عبدالناصر يعتبر سيد قطب، مؤدلج الإخوان، حليفا مفيدا. لكن الخلافات تفاقمت بين الطرفين، وبعد محاولة الإخوان اغتيال عبدالناصر، تم حظر الجماعة وأُلقى بأعضائها وقياداتها فى المعتقلات وأُعدم أربعة منهم.

وعلى الرغم من اضطهاده للشيوعيين وموقفه المعادى للإمبريالية، كان عبدالناصر يقبل المساعدات من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فى آن.

بيد أن غالبية المصريين كانوا ينظرون لناصر على أنه هو من أطاح بالملكية وأنهى الاستعمار البريطانى وأمم قناة السويس وأصدر قوانين الإصلاح الزراعى وحقق تنمية اقتصادية.. إلخ.

استمرت الأنشطة النسائية فى الفترة الناصرية وتركزت على حقوق النساء والدفاع عنها، وعلى التنظيمات غير الحكومية وتحدى خطابات الهيمنة الذكورية.

فى عام ١٩٥٦ هاجمت فرنسا وبريطانيا منطقة القنال [فى رد منها على تأميم القناة] ودخلت الجيوش الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء، ثم أُجبروا جميعهم على الانسحاب [وكان فى هذا نهاية الإمبراطورية البريطانية]:

فى تلك الأثناء لم تتوقف الحركة المُطالبة بالديموقراطية، بيد أن هزيمة عام ١٩٦٧ أتت معها بنكسة للتيارات القومية والشيوعية ليس فى مصر فقط بل فى جميع أنحاء المنطقة. وفى عام ١٩٧٠، بعد أن خاضت مصر حرب استنزاف ناجحة ضد إسرائيل وأعادت تسليح جيشها الذى أصبح ذا كفاءة عسكرية وقتالية عالية، قبل ناصر قرار الأمم المتحدة بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ مقابل إقرار السلام بينها وبين الدول العربية.

وكما أسلفنا، كانت إيران فى تلك الأثناء قد اعترفت بإسرائيل وكانت تمدها بالنفط مما أدى بجمال عبدالناصر إلى قطع العلاقات مع إيران، لكن حينما توفى عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٧٠، حضر فريدون هوبيدا، رئيس الوزراء الإيرانى جنازته ممثلا للدولة الإيرانية. خلف أنور السادات (١٩٧٠- ١٩٨١) عبدالناصر، وعكس جميع سياسات ناصر الاقتصادية وألغى دعم الدولة للإسكان والرعاية الصحية وغيرها، وفتح الاقتصاد المصرى على مصراعيه أمام الاستثمارات الأجنبية. ثم قام فى عام ١٩٧٩ بتوقيع اتفاقية كامب دايڤيد للسلام مع إسرائيل.

ما بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٣، واصل اليسار العلمانى والحركات

القومية نضالهم من أجل الديموقراطية، والسيادة الوطنية، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وكان لهم قدر من التأثير على الحركة العمالية. أطلق السادات سراح قيادات جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا قد اعتقلوا فى عهد ناصر، وعلى الرغم من أن الجماعة ظلت محظورة قانونيا، إلا أنه سمح لهم فى عام ١٩٧٩ بإعادة إصدار صحيفتهم «الدعوة». كما أمر السادات بوضع دستور جديد جاء به أن الإسلام هو المصدر الأساسى للتشريع.

كانت صحيفة الدعوة تؤيد صراحة سياسات السادات الليبرالية الانفتاحية، وظلت الجماعة معادية للشيوعية والعلمانية. أقامت الجماعة حركات دعم قاعدية قوامها الاتحادات الطلابية الإسلامية والمجموعات الأخرى التى تتبنى فكر سيد قطب. وبنهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، كان الإخوان المسلمون ومعهم جماعة الجهاد الإسلامية والجماعة الإسلامية الذين مضوا يتحدون الدولة قد أصبحوا حركات اجتماعية قوية ونشطوا بخاصة فى وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية ومؤسسات الرعاية الصحية.

أعاد السادات العلاقات الدبلوماسية مع إيران وكان السادات يتحدث الفارسية بطلاقة وله علاقات وثيقة مع الشاه الذى أمد مصر بقروض لإعادة إعمار بورسعيد ودعم السادات فى قراره لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل. وعلى الرغم من كل هذا، رحب غالبية المصريين بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بمن فى ذلك اليساريون والقوميون العلمانيون والإسلاميون. رأوا فى الثورة برهانا على إمكانية هزيمة طاغية قوى، وردا من قبل أمة مسلمة على أعمال العدوان الإمبريالية والصهيونية.

هرب شاه إيران إلى الولايات المتحدة ثم إلى القاهرة حيث رحب به

السادات الذى كان يتعرض لمعارضة قوية فى مصر نتيجة لسياسة «الباب المفتوح» مع الغرب وموقفه المسالم من إسرائيل. ثم توفى الشاه ودفن بالقاهرة. نتيجة لذلك، قطعت إيران الثورة العلاقات الديبلوماسية مع مصر. كانت مصر هى ودول مجلس التعاون والأردن واليمن حلفاء للعراق فى حربها ضد إيران. وفى تطورات لاحقة، شاركت مصر عام ١٩٩١ فى قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة التى أدت إلى إخراج العراق من الكويت ثم بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣، وسقوط صدام، ظلت مصر مترددة فى إقامة علاقات مع الدولة العراقية الجديدة التى يهيمن عليها الأكراد والشيعة ولها روابطها بإيران.

وعلى الرغم من ذلك، فبعد انتهاء الحرب العراقية/ الإيرانية، تم استعادة التعاون الصناعى والتجارى بين مصر وإيران. بلغ حجم التجارة بين الطرفين لدى نهاية رئاسة رفسانجانى (١٩٨٩ - ١٩٩٧) ثمانين مليون دولار. وخلال فترة رئاسة خاتمى كانت ثمة محاولات لتحسين العلاقات من خلال تبادل الزيارات الديبلوماسية وإقامة جمعية الصداقة المصرية الإيرانية فى إيران. اكتسب فوز الإصلاحيين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية أهمية خاصة لدى المصريين إذ رأوا إيران نموذجا للديموقراطية فى الشرق الأوسط الإسلامى، وبخاصة لأن الرئيس مبارك كان قد مدد العمل بقانون الطوارئ، حتى أن الأزهر، الذى كثيرا ما ينقد إيران، أكد أن هذه الانتخابات تبين أن بإمكان الحياة الديموقراطية أن تنمو فى ظل الحكم الإسلامى.

وفى عام ٢٠٠٩، غدت الانتخابات التى أجريت فى إيران وما أعقبها من قمع سياسى موضوعا للنقاش فى أوساط اليسار العلمانى، والقوميين والإسلاميين بمصر. أثار دعم إعلام التيار الرئيسى الغربى

والمصرى والعربى لحركة الديموقراطية تساؤلات كثيرة لدى المصريين. ووفقا لتعليق أميمة أبوبكر الأكاديمية والناشطة فى مجال حقوق النساء فإن:

«انتخابات يونيو فى إيران أصابتنا بإحباط عميق إذ شعرنا أن هناك انتخابات حقيقية وديموقراطية حقيقية فى إيران. وفيما رأينا الوحشية التى استخدمت ضد المتظاهرين فقد شهدنا أيضا دعم الحكومات الغربية والإقليمية لحركة الديموقراطية بإيران، مما أصابنا بالتشوش والتشكك، ومازلنا نتساءل عن وجود أيد أمريكية تعمل فى إيران».

أيضا، ظلت هناك محاولات من قبل حكومة أحمدى نجاد لعودة العلاقات بين مصر وإيران. فى ديسمبر ٢٠٠٩، حضر على لاريجانى رئيس البرلمان الإيرانى، وهو من المحافظين الوسط، اجتماع الاتحاد البرلمانى لمنظمة المؤتمر الإسلامى. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات ديبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٨٠، ومن معارضة المحافظين المتشددين، اجتمع لاريجانى بمبارك وناقشا قضايا فلسطين والسلام والأمن فى المنطقة والتبادل التجارى الممكن بين البلدين:

صعود الإسلاميين:

ناقشنا فى الفصول السابقة تأثير إيران فى لبنان والعراق وفلسطين من منطلق السياق التاريخى الأوسع، مثل التطورات الاجتماعية / الاقتصادية. والتيارات القومية والإسلامية والمسار السياسى لتلك التجارب من أجل توضيح التغييرات المتمايزة التى أحدثتها فى تلك المجتمعات. ومن نفس المنطلقات سنبحث سقوط اليسار العلمانى والحركات القومية فى مصر وصعود الحركات الإسلامية كقوة بديلة، وأيضا تناقضات الإسلام السياسى هناك، وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية.

استغل ناصر والسادات ومبارك شعبية الإسلاميين من أجل ترسيخ سيطرتهم على الحكم. أيضا استخدموا الإسلاميين من أجل قمع اليسار العلمانى والقوميين(١). فى ظل حكم السادات ومبارك الذى تولى السلطة عام ١٩٨١ تم إضعاف اليسار العلمانى والقوميين نتيجة للشقاقات بينهم. أيضا، أسهم القمع السياسى وافتقادهم لأى برنامج سياسى متسق فى عدم دعم غالبية الناس لهم. كما أنهم لم يكن لهم أى إسهام مؤثر فى الأوساط التى يحظون فيها ببعض التأييد مثل الحركات العمالية كما ظلوا أقلية فى الاتحادات العمالية ذات القيادات الموالية للحكومة.

أما بالنسبة لناشطات حقوق النساء فإن موقف اليسار العلمانى والقوميين ظل ملتبسا حيث إنهم لم يولوا مساواة النوعين أية أولوية. وفى عام ١٩٨٢ هاجمت نوال السعداوى التفرقة بين الإناث والذكور فى محيط الأسرة وفى المجتمع ككل. وفى عهد مبارك استمرت عدد من ناشطات حقوق النساء فى النضال من أجل قضايا المرأة. تذهب ليلى أبولغد إلى أن الإسلاميين، بتبنيهم الأفكار الحداثية عن دور المرأة فى المجتمع والعلاقات الزوجية والأسرة، بدأوا ينافسون اليسار العلمانى والليبراليين والقوميين فى هذا المجال. وفى عهد مبارك، أخذت المنظمات التابعة للأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية تعمل على تشكيل سياسات الدولة وأجندات الأنشطة النسائية المعاصرة وكان لهذا أثره السلبى على

(١) قول مرسل آخر يفتقد الدقة الأكاديمية والموضوعية، بل ويتناقض مع ما ذكرته المؤلفة من أن الخلافات دبت بين عبدالناصر والإخوان المسلمين بعد وقت قصير من توليه السلطة، ولم يُعرف عنه أبدا أنه قمع التيارات القومية بل العكس هو الصحيح. أيضا فهناك اختلاف كبير بين تعاطى كل من السادات ومبارك مع التيارات الإسلامية، ونرى أن أساليب التعاطى هذه أكثر تعقيدا بكثير مما توحى به مثل هذه المقولات التبسيطية المرسلة. (الترجمة).

الرأى العام وأدى إلى تزايد شعبية التنظيمات النسائية الإسلامية التى لا تعتمد على الدولة أو التمويلات الدولية.

استغل نظام مبارك الهجوم الذى يتعرض له الإسلاميون من قبل اليسار العلمانى والقوميين فرصة لإقصاء الإسلاميين، من ثم، وجدت هذه القوى العلمانية نفسها تقف فى صف الدولة القامعة. ولهذه الأسباب مجتمعة عجزت التيارات العلمانية اليسارية والقومية عن توفير البديل عن الحركات الإسلامية، وأدى ذلك إلى تهميشها وفتح الطريق أمام التوجهات الإسلامية. فى السبعينيات، كان اليساريون والقوميون يتصدون لنظام السادات من خلال تنظيم الاحتجاجات الدورية، لكننا نجدهم بعد أربعة عقود، وعلى الرغم من أنهم مازالوا جزءا من الحركة الديموقراطية ضد مبارك، فإن تأثيرهم قد خبا فيما تعاظم تأثير التيارات الإسلامية.

ناشطات حقوق النساء الإسلاميات:

منذ بداية القرن الحادى والعشرين، ظل تواجد ناشطات حقوق النساء الإسلاميات دالا ومهما. لعبن دورا مهما فى الحركة الإسلامية المتنامية التى تؤمن بعدم وجود تعارض بين الإسلام والحداثة والديموقراطية. ومن خلال إعادة تأويلهن للتعاليم الإسلامية يخضن نضالهن للمساواة بين الرجل والمرأة فى إطار النموذج الإسلامى المعيارى، وقد اكتسب هذا التوجه شعبية بين المتعلمات اللاتى تبنين حقوق النساء نشاطا رئيسيا لهن ويستخدمن لغة وممارسات دينية لتوسيع تلك الحقوق. ووفقا للسياقات المختلفة، فأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع هيمنة تمكنهن من ممارسة السطوة داخل الأسرة والمجتمع، وأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع تبعية وخضوع.

تعمل أميمة أبوبكر أستاذاً للأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة وإحدى العضوات الرئيسيات فى «تنظيم الذاكرة» بالقاهرة. ومثل الناشطات الإيرانيات اللاتى ورد ذكرهن فى الفصل الثانى، تقرأ النساء المصريات تاريخ الإسلام من منظور نسوى بهدف توضيح دور النساء فى الإسلام. فقد لعبت النساء أدوارا سياسية وثقافية مهمة فى تاريخ مصر والعراق وسوريا ولبنان والجزيرة العربية، وبجعلهن تلك النماذج التاريخية واضحة جلية تتحدى الناشطات نظام مبارك العلمانى التابع للغرب ورجال الدين المحافظين فى آن، وهذه مهمة صعبة إذ إنهن يتعرضن للهجوم من المعسكرين. لكن أجيال الشباب من النساء والرجال يتجاوبون مع دعوتهن لتحدى النظام من جهة، والإسلاميين المحافظين فى الإعلام والمساجد من جهة أخرى.

أيضا، تقوم ناشطات إسلاميات كثيرات بتوفير الرعاية الاجتماعية إذ إن فشل الدولة فى توفير تلك الخدمات للفقراء أتاح الفرصة للنساء لتوفير الرعاية الصحية والتعليم للنساء الأكثر فقرا فى أنحاء البلاد واللاتى يعشن أوضاعا مهمشة بائسة. ترى هؤلاء الناشطات أن مشاركة النساء فى خدمة المجتمع ضرورى لتحسين الأوضاع فى مصر، ويرين أن تغيير المدركات عن دور النساء المسلمات كأمهات وزوجات سلبيات هو واجب دينى. لا ينتمين إلى أية منظمات إسلامية ولا يتلقين أموالا من الدولة، إذ إنهن يعتمدن على مواردهن الخاصة وعلى المتطوعات مثل الطبيبات والممرضات وغيرهن من المهنيات، ويعتنين بالأيتام ويقمن بتوزيع الأطعمة والضروريات الأخرى على فقيرات النساء وأسرهن. وفى أحيان كثيرة، حينما تتحسن أوضاع متلقيات المساعدات يصبحن متطوعات بدورهن ويساعدن مجتمعاتهن.

الإسلاميون وتوفير الخدمات:

يعمل الإسلاميون فى مصر، مثل حزب الله فى لبنان وحماس بفلسطين، على توفير الموارد وتنمية المجتمعات وإقامة الشبكات الاجتماعية. وبهذا الأسلوب، استطاعوا اكتساب تأييد غالبية المصريين لأنهم غدوا بديلا سياسيا واقتصاديا وثقافيا لنظام مكرس للنيوليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية. تسارعت عملية التحرير الاقتصادى فى عهد مبارك. وفى التسعينيات بخاصة توسع القطاع الخاص من خلال بيع الصناعات التى تملكها الدولة ومؤسسات القطاع العام. كانت الدولة منذ نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، قد انسحبت من دورها لتوفير الرفاه الاجتماعى والخدمات الاجتماعية مما أدى إلى ظهور شبكات مؤلفة من مئات جميعات المساعدات والجمعيات الخيرية الإسلامية والمنظمات غير الحكومية العلمانية والإسلامية، وغالبية هذه المنظمات تديرها تنظيمات إسلامية مختلفة وتوفر العون للمجموعات الفقيرة. كما تقوم مساجد عديدة بتوفير الخدمات الاجتماعية. تأتى أموال هذه المنظمات من الزكاة ومن رجال الأعمال والعاملين فى الخليج، ويقال إن المنظمات غير الحكومية الإسلامية أفضل تمويلا وإدارة من نظيراتها العلمانية.

فى الثمانينيات، كان ثلث المنظمات التطوعية يديرها إسلاميون وتوفر الخدمات الاجتماعية لملايين الأفراد، وفى التسعينيات زاد عددها لتصبح نصف المجموع الكلى للمنظمات. فى الثمانينيات كانت التنظيمات الإسلامية توفر الرعاية الصحية لأربعة مليون ونصف المليون شخص، وفى التسعينيات بلغ مجموع عدد من يتلقون تلك الرعاية ١٥ مليون شخص. أقامت تلك التنظيمات أيضا المساجد والمدارس ونوادى الفيديو

ومراكز للتدريب على الكمبيوتر. وعلى الرغم من أن المنظمات غير الحكومية العلمانية تنشط فى مجال العمل الاجتماعى، إلا أن مشاركة الأزهر، والإخوان المسلمين، والجهاد، والجمعية الإسلامية فى هذا المجال جعل توفير الإسلاميين لتلك الخدمات أكثر فاعلية وتأثيرا.

ولهذا النشاط الإسلامى دلالات وأهمية خاصة. فمنذ بداية القرن الحادى والعشرين زادت الاستثمارات الأجنبية فى البلد، ووصل النمو الاقتصادى منذ عام ٢٠٠٥ صعوداً إلى معدل ٧٪ سنويا. بيد أن معدل التضخم الذى وصل إلى ١٥٪ والأثمان الباهظة للأطعمة المستوردة أوجد حالة معاناة كبرى لمعظم الناس والفقراء بخاصة. قامت التظاهرات عام ٢٠٠٨ بسبب الطوابير الطويلة على مخابز العيش المدعوم التى نجم عنها قتل ستة أفراد وإصابة خمسة وثلاثين. و فيما تتوسع العشوائيات على أطراف القاهرة الكبرى، والتى تفتقر إلى الخدمات التعليمية والرعاية الصحية وتنتشر فيها البطالة، نجد أن الأحياء السكنية فى أماكن أخرى من القاهرة ذات البوابات والأسوار والخدمات الأمنية الخاصة يتوسع نطاقها.

أدت خطط الخصخصة والاقتطاعات الهائلة من إنفاقات الحكومة على الخدمات والرعاية الاجتماعية إلى وصول نسبة البطالة إلى ٢٦,٣٪ من سكان مصر، ويزيد هذا المعدل أضعافا بين أفراد المجموعة العمرية من ١٥ إلى ٢٩ عاما. ويواجه من لديهم وظائف اقتطاعات مستمرة من أجورهم الواقعية، وتراجع قدرتهم الشرائية وتدهور مستوياتهم المعيشية. ووفقا لمعايير البنك الدولى، يصنَّف ٩٥٪ من موظفى الحكومة البالغ عددهم ٥,٨ مليون على أنهم فقراء، وفى نفس الوقت، يتلقى نسبة الـ ١٠٪ الأكثر ثراء فى مصر ٢٩,٥٪ من دخل البلد.

وفى ظل هذه الأوضاع الاقتصادية غدا الإسلاميون القوة المعارضة المهيمنة فى أوساط الفقراء الحضريين، والمهنيين والطلبة والعمال. يساهم عدد من هذه التنظيمات مثل الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية، والجهاد، والتبليغ والدعوة فى النفوذ المتنامى للإسلاميين. كما يتنامى تأثير الكُتّاب والمفكرين والوعاظ الإسلاميين غير المرتبطين بأية جماعة. أشعلت ممارسات إسرائيل العنيفة ضد الفلسطينيين وحروب الولايات المتحدة أشعلت المشاعر القومية/ الدينية وأدت إلى مزيد من نزع الشرعية عن النظام الحاكم.

الإخوان المسلمون والحياة السياسية الانتخابية:

الإخوان المسلمون أكبر التنظيمات الإسلامية الموجودة فى الساحة وقد نجحوا فى تعبئة عشرات الآلاف ضد نظام مبارك. يؤيدهم الأغنياء والفقراء والنساء والرجال والشباب وكبار السن، هذا على الرغم من أنهم يتلقون الدعم الأكبر من سكان المناطق الحضرية بخاصة. يواجه كثيرون من المتعلمين من الطبقات الدنيا الذين أفادوا من توسع النظام التعليمى فى الحقب السابقة البطالة منذ الثمانينيات ومن ثم، انضموا إلى مؤيدى الإخوان المسلمين، وبهذا وسعت الجماعة قاعدتها الجماهيرية فى الأحياء الحضرية الفقيرة لتشمل الخريجين والعمال وقطاعات من الفقراء الحضريين.

ومن خلال توفيرهم الخدمات الاجتماعية كسبوا دعما جماهيريا وقدموا أنفسهم بديلا للدولة التى تخلت عن مسئولياتها تجاه الشعب والتزمت بالنيوليبرالية الاقتصادية وبالتحالف مع الغرب.

ومنذ بداية القرن الحادى والعشرين، أيد غالبية الشعب المصرى دعم الجماعة للانتفاضة الفلسطينية وعلاقتها الوثيقة بحماس وموقفها

الرافض للحرب على العراق، بل إن الجماعة نقدت دول الخليج لعدم اعتراضها على عمليات الولايات المتحدة وممارساتها العدائية فى المنطقة. وفى غياب اليسار العلمانى والقوى القومية كبديل لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة، قاد الإخوان المسلمون المعارضة الجماهيرية ضد الحرب على العراق والاحتجاجات ضد الوحشية الإسرائيلية فى فلسطين، بل إنهم أبدوا استعدادهم لمساندة حزب الله ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦.

وفى استجابة منها للدعم الذى تتلقاه من مختلف المجموعات، أعلنت الجماعة أنها تؤيد الحقوق المتساوية فى المواطنة للرجال والنساء، والمسيحيين والمسلمين هذا على الرغم من إعلانها أنه بغير استطاعة الأقباط والنساء تولى رئاسة الدولة. ويرجع هذا التناقض إلى وجود أجنحة مختلفة داخل الجماعة يفضل بعضها المزيد من المواجهات القتالية مع الدولة والمزيد من التعاون مع المعارضة العلمانية. يذهب بعض الباحثين إلى أن التغيرات التى نشهدها فى موقف الجماعة ناتجة عن التوترات داخل التنظيم وعزم القيادات على إرضاء قاعدتها الجماهيرية المتنوعة.

بيد أن صعود قيادة جديدة من المحافظين المتطرفين فى انتخابات مكتب الإرشاد عام ٢٠١٠ كان هزيمة للجناح الإصلاحى فى الإخوان المسلمين، مما أثبط - بخاصة - الأعضاء والداعمين الشباب الذين ينادون بمقرطة الجماعة وانضمامها إلى صفوف اليسار العلمانى والقوميين ضد نظام مبارك.

كان لحرب إسرائيل على غزة وهجومها على أسطول الحرية عام ٢٠١٠ تداعيات سياسية هائلة فى مصر. وعلى الرغم من أن جماعة

الإخوان وجهت جميع أنواع النقد إلى إسرائيل، إلا أن شباب الجماعة ضموا أصواتهم إلى أصوات الاشتراكيين العلمانيين والقوميين وطالبوا حكومة مبارك بعكس دعمها وخنوعها لسياسة إسرائيل تجاه غزة، وطالبوها أيضا باحترام تطلعات الشعب المصرى إلى الديموقراطية.

وفى هذا الصدد، ذهب محمد البرادعى الحائز على جائزة نوبل للسلام والرئيس السابق لوكالة الطاقة النووية التابعة للأمم المتحدة، والذى يتوقع له أن يخوض الانتخابات الرئاسية عام ٢٠١١ ضد مبارك، ذهب إلى أنه على الحكومات الغربية أن تفتح أعينها لواقع الديموقراطية الزائفة فى مصر وإلا فإنها تخاطر بفقدان جميع مصداقيتها فى معركتها ضد التطرف. وأضاف أن الحكومات الغربية تخاطر بخلق جيل جديد من المتطرفين الإسلاميين إذا استمرت فى دعمها للنظم القامعة فى المنطقة. وعلى الرغم من هزيمة التيار الإصلاحى المتنامى فى انتخابات مجلس الإرشاد فى ٢٠١٠، بيد أن المتوقع لهذا التيار أن يتسبب فى التدمير الذاتى لقوى المحافظين داخل الجماعة.

وبنفس أسلوب حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين، يتحدى الإخوان المسلمون الدولة بخوض الانتخابات التشريعية وقد نجح مرشحوها فى كسب الدعم. بدأ نشاطها الانتخابى فى السبعينيات وخاضت الانتخابات التشريعية والمحلية كتنظيم مهنى حديث. وعلى مر العقود، أدت التغيرات فى تركيبة الجماعة الاجتماعية، والجدالات الداخلية بين الأجيال الشابة والأكبر سنا حول قضايا الجندر والموقف من الأقباط والأوضاع الاجتماعية/ الاقتصادية والقضايا الإقليمية والدولية أدت كلها إلى تغيير الجماعة سياسيا. طوال الثمانينيات والتسعينيات، استمرت التنظيمات الإسلامية الأخرى مثل الجهاد فى

أنشطتها القتالية المسلحة مما أخضعها لقمع عنيف من أجهزة الدولة وأفقدها الدعم من قبل عامة الناس، وبقيت الجماعة هى التنظيم الإسلامى المهم الوحيد وكانت نافذة بخاصة فى الأوساط الطلابية. بدأت عام ١٩٨٤ فى المشاركة فى انتخابات نقابة الأطباء وفازت بخمسة وعشرين مقعدا فى مجلس إدارتها.

قررت الجماعة فى الثمانينيات المشاركة فى الانتخابات المحلية والتشريعية لكنها خاضت الانتخابات متحالفة مع الوفد لأنها ليست حزبا سياسيا. وفى عام ١٩٨٤ فاز هذا التحالف بنسبة ١٥,١٪ من أصوات الناخبين، فيما فشلت أحزاب المعارضة الأخرى فى الوصول إلى عتبة نسبة ٨٪ الضرورية كى تتأهل للتمثيل البرلمانى. وفى عام ١٩٨٧ غيرت الجماعة شركاءها وشكلت تحالفا مع حزب العمل والحزب الليبرالى وفازت تلك الكتلة بنسبة ١٧,١٪ من مجموع الأصوات فيما فاز الوفد بنسبة ١٠,٩٪ والحزب القومى التقدمى الوحدوى [؟] بنسبة ٢,٢٪ فقط، أى أن الكتلة التى ضمت الجماعة فازت بأصوات تفوق ما فازت به أحزاب المعارضة الأخرى مجتمعة.

فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات كان الإخوان المسلمون يتحكمون فى النقابات المهنية والاتحادات الكبرى فى مصر ومن ضمنها نقابة الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وأطباء الأسنان واتحاد رجال الأعمال واتحادات طلبة الجامعات، ومن مواقعهم تلك تصدى قادة تلك الاتحادات للفساد، وأنشأوا أنظمة للرعاية الاجتماعية وتعاونيات استهلاكية. أيضا، قاموا بتنظيم بعثات الحج وطالبوا بالدفاع عن فلسطين وعن مختلف القضايا الحقوقية.

كان بعض من مؤيدى الإخوان المسلمين فى الماضى يمتلكون عددا من

المشاريع الخاصة وفى نهاية الثمانينيات كانت نسبة المشاريع الخاصة المرتبطة بالإخوان تعادل ٤٠٪ من جميع المشروعات الخاصة بمصر، وكانت شركات الاستثمار هذه تقوم بدعم الأسر ذات الدخول المنخفضة. رحب الإخوان المسلمون بسياسات السادات الانفتاحية وطالبوا طوال الثمانينيات بمزيد من الإصلاحات الواسعة لتحرير السوق. وفى عام ١٩٩١، وبضغط من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى سارعت الدولة بتطبيق برنامج الإصلاح النيوليبرالى من خلال برنامج للتعديل الهيكلى. أدى هذا إلى ظهور تناقضات فى خطاب الإخوان الاقتصادى، حيث نقدت الجماعة فى انتخابات النقابات العمالية لعام ١٩٩١ البرنامج النيوليبرالى الاقتصادى ودعمت حق العمال فى الإضراب فيما كانت تؤيد تحرير الأسواق والسياسات النيوليبرالية.

فى عام ١٩٩٠، احتجت الجماعة على القمع السياسى وقاطعت الانتخابات؛ لكنها شاركت فى انتخابات عام ١٩٩٥ وفازت بمقعد واحد بالبرلمان؛ وسبعة عشر مقعدا فى انتخابات عام ٢٠٠٠، وفى انتخابات نقابة المحامين عام ٢٠٠١، فاز الإخوان بثمانية مقاعد من مجموع أربعة وعشرين مقعدا وتحالفت مع المرشحين العلمانيين وتجنبت أية ارتباطات بالجهاد والجماعة الإسلامية. وفى انتخابات عام ٢٠٠٥ التشريعية التى خاضها أفراد الجماعة كمستقلين فاز الإخوان بثمانية وثمانين مقعدا – أى حوالى ٢٠٪ من مقاعد البرلمان؛ هذا على الرغم من القيود السياسية التى لم تسمح للتنظيم سوى بمائة وخمسين مرشحا. وفى نفس الانتخابات لم يفز اليساريون والليبراليون سوى بأربعة عشر مقعدا، أى بما يربو قليلا على ٣٪ من مجموع الأصوات.

وفى عام ١٩٩٦، تمرد عدد من شباب الإخوان على الأسلوب

السلطوى للجماعة وانشقوا عنها وقاموا بتشكيل حزب الوسط الذى تبنى الدعوة للمساواة بين الرجل والمرأة والتعددية السياسية. دعم الحزب عدد من المثقفين العلمانيين البارزين الذين رأوا أنه يمثل شكلا من الإسلام السياسى أكثر اعتدالا واستنارة.

وكما أشرنا سابقا، فقد نقدت جماعة الإخوان، التى كانت قد دعمت السياسة الاقتصادية النيوليبرالية، الخصخصة وحل القطاع العام فى برنامجها الانتخابى لانتخابات مجلس الشورى عام ٢٠٠٧، وذلك بضغط من مؤيديها فى الاتحادات العمالية وفى القطاعات الفقيرة من المجتمع.

ومنذ عام ٢٠٠٠، طرحت الجماعة عددا من المرشحات فى الانتخابات المحلية لكن لم تفز أية واحدة منهن حتى الآن. وفى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية كان لترشيح الإخوان چيهان الحلفاوى أهمية خاصة حيث فازت على منافسها مرشح الحزب الوطنى الحاكم فى الجولة الأولى من الانتخابات، ومن ثم ألغت وزارة الداخلية النتائج وأجلت الانتخابات عامين، ثم قامت بتزوير النتائج عام ٢٠٠٢ وأعلنت فوز مرشحين من الحزب الوطنى. أثار ترشيح چيهان الحلفاوى الجدل داخل الجماعة حول مستقبل الأنشطة النسائية، بيد أنه تم تنظيم تظاهرات داخل دائرتها شارك فيها أعضاء محافظون من الجماعة دعماً لها وحشدوا أصواتا مؤيدة لها. لعبت نساء الإخوان المسلمين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ و٢٠٠٧، المحلية والتشريعية دورا مهما داخل الجماعة وشاركت فى الأنشطة السياسية والتظاهرات. تتحدى الأجيال الشابة من الأخوات الناشطات المتعلمات اللاتى يشعرن بالاستياء من وضعهن الهامشى فى بنية السلطة فى الجماعة، يتحدين القيادات الذكورية حول مكانتهن الثانوية، وهناك مجموعة من الإخوان يدعمون هؤلاء الأخوات، بل

ويطالبون الجماعة بعدم حظر ترشح النساء لمنصب رئاسة الجمهورية.

وكما الوضع فى إيران ولبنان وفلسطين، فإن لتغيير خطاب الإسلاميين فى مصر دلالته. يرى الباحثون أن الإخوان المسلمين وغيرهم من الإسلاميين فى مصر، بما فى هذا حزب الوسط، لم يذهبوا بعد أبعد مما ذهب إليه الإسلاميون فى القرنين التاسع عشر والعشرين مثل محمد عبده ورشيد رضا، ولم يناظروا «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران والذين ناقشناهم فى الفصل الثالث. وعلى الرغم من ذلك، فقد أوضحت حركة المعارضة السياسية فى مصر طريق العمل فى المستقبل من خلال العمل السياسى المشترك والتنسيق بين اليساريين والقوميين والإسلاميين. ورغم العداءات بين تلك المجموعات، فإن جيل الشباب منفتح على التعاون وينشط فى الدعوة إلى الديمقراطية بالاشتراك فى الحملات ضد الهيمنة الغربية والنظام الحاكم السلطوى القمعى.

تبعية الدولة للغرب تقوى الإسلاميين:

فى عام ٢٠٠٦، وفى رد فعل على سياسات مبارك، وقع أهم إضراب صناعى ذو أبعاد سياسية فى المحلة الكبرى حينما أضرب عمال شركة الغزل والنسيج هناك، حيث تبلغ نسبة النساء العاملات ٢٢٪ من قوة العمل (لا تستطيع ثلثا الأسر المصرية العيش على مرتب واحد).

لعبت النساء أيضا دوراً مهما فى إضراب مصنع المنصورة/ إسبانيا للملابس الجاهزة. لعب هؤلاء العمال، ومعهم موظفو جمع الضرائب الذين شكلوا اتحادهم المستقل، دورا رئيسيا فى حركة الديموقراطية وتحدوا نظام مبارك بالرغم من أساليب القمع السياسى.

أثناء إضراب موظفى جمع الضرائب، انضمت نساء كثيرات، بمن فيهن هؤلاء اللاتى يعلن عائلاتهن، إلى تظاهرات الشارع. وعلى الرغم

من توجيه السلطات، بمن فى هذا وزيرة العمل عائشة عبدالهادى، النقد لهن، فقد استمررن فى الاعتصامات والتظاهرات وقضين ليالى عديدة فى الشارع إلى جانب زملائهن الرجال.

فى المناطق الريفية، يناضل الناس أيضا ضد الدولة حيث يواجه الملايين من صغار المزارعين خطر سلبهم أرضهم نتيجة تنفيذ قانون يسمح للأسر الإقطاعية القديمة، التى تملكت الأرض فى ظل الاستعمار، من استرداد أراضيهم التى تملّكها صغار المزارعين بمقتضى قانون الإصلاح الزراعى فى الخمسينيات – وهذا تحول لصالح كبار الملاك ويؤدى إلى زيادة كبيرة فى عدد الفلاحين المحرومين الذين لا يملكون أراضى، وهؤلاء يناضلون برفضهم إعادة الأرض.

تعتبر حركة التغيير «كفاية» حركة مظلة ينضوى تحتها المثقفون والنشطاء الحقوقيون، والصحفيون، والقضاة، والفنانون، والعمال، والطلبة وأساتذة الجامعات والمنظمات غير الحكومية والمجموعات النسائية والمسلمون والأقباط وتضم ناشطين من جميع التوجهات – ليبراليين، اشتراكيين، قوميين، وإسلاميين، نظم أعضاء كفاية ومؤيدو الإخوان المسلمين تظاهرات واعتصامات للمطالبة بإنهاء العمل بقانون الطوارئ، وكانت الناشطات يشكلن حوالى نصف المتظاهرين، وبرز من بينهن بخاصة الناشطات الإسلاميات وهن يرتدين الحجاب. ذهبت الحركة إلى ما هو أبعد من المطالبة بالتغيير فى مصر، فهم يدعمون الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين فى مواجهة العدوان الصهيو/أمريكى ويتخذون مواقف مناهضة للعولمة ولهيمنة الولايات المتحدة. تحدى القضاة المصريون الدولة أيضا وطالبوا بالإشراف القضائى الكامل على الانتخابات، وباستقلال حَقٌّ للسلطة القضائية، ودعمتهم

المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والإخوان المسلمون والنقابات المهنية والمثقفون وأساتذة الجامعات وطلبتها.

عُقدت مؤتمرات دورية مناهضة للحرب والإمبريالية بالقاهرة (٢٠٠٣-٢٠٠٨) بالتعاون مع نقابة الصحفيين وبمشاركة من حزب الكرامة القومى، والإخوان المسلمين وحزب الوسط، والاشتراكيين الثوريين، وحزب الإعمار [؟].

لهذه المؤتمرات أهمية خاصة حيث يوضح التعاون بين الإسلاميين والقوميين واليسار ملمحا مهما للأنشطة السياسية الجديدة فى مصر: من جهة يتضح أن كثيرا من النشطاء السياسيين الإسلاميين منفتحون على النقاش السياسى؛ ومن جهة أخرى، يتبين أن كثيرا من اليساريين العلمانيين والقوميين، وعلى الرغم من موقفهم الناقد للمشروع الإسلامى، يرفضون قمع النظام للإسلاميين. ويمثل هذا الشكل الجديد من التعاون بين مختلف القوى تحديا جديدا لنظام مبارك.

حضر هذه المؤتمرات نشطاء إسلاميون وعلمانيون واشتراكيون مناهضون للحرب من أنحاء الشرق الأوسط وأوربا وأمريكا الشمالية وغيرها من مختلف الأنحاء. وفى مواجهة الأزمات وحالة الفوضى الآخذة فى التعمق فى جميع أرجاء الشرق الأوسط، وكنتيجة لفشل سياسات الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل الكارثى بالمنطقة، وفّرت تلك المؤتمرات فرصة لإقامة الشبكات وتبادل الأفكار، والحوارات. قالت لى زينب، عضوة حزب الكرامة والناشطة فى حركة كفاية:

«أنشأنا، فى عامى ١٩٩٧ و١٩٩٨، وأثناء العقوبات على العراق «اللجنة الشعبية لإنقاذ أطفال العراق». نظمت اللجنة إرسال سبع قوافل مساعدات طبية للعراقيين، إلى جانب دعمها السياسى لهم. عارضنا

الغزو الأمريكى لأننا كنا نؤمن أن على العراقيين أنفسهم التعاطى مع نظام صدام حسين. فيما بعد، تحولت هذه اللجنة إلى «الحملة الدولية ضد الاستعمار الصهيونى والأمريكى»، والتى قامت بتنظيم مؤتمر القاهرة السنوى لمناهضة الحرب، وهو تجمع دولى تحضره المنظمات الدولية المناهضة للحروب، وتقوم أيضا بمناقشة مناهضة الصهيونية ودور الحكومات العربية فيما يتعلق بإسرائيل والغرب، وقضايا حقوق الإنسان».

تقول رباب المهدى، إن المرحلة الأولى لحركة التغيير بدأت بتحدى تولى مبارك لفترة خامسة مدتها ست سنوات وبرفض مخطط توريث ابنه الحكم؛ وكانت قد سبقتها حركة تعبئة شاملة لمناصرة انتفاضة ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ الفلسطينية رفعت شعار «الطريق إلى القدس يمر عبر القاهرة»، ثم حركة مناهضة الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، كانت حركة كفاية هى الدورة الثالثة للنشاط السياسى، وحينما بدأت كفاية تهدأ عام ٢٠٠٥، نشط قضاة مصر عام ٢٠٠٦ مطالبين باستقلال السلطة القضائية، وفيما خفتت حملة القضاة تطورت موجة نشطاء جديدة فى أوساط العمال والمهنيين.

وفى رد منها على حركات الاحتجاج، عاظمت الدولة من أساليبها القمعية. يواجه العمال والناشطون السياسيون الاعتقال والتعذيب المنهجى. تم تجديد العمل بقانون الطوارئ سيئ السمعة والذى يمنح الجهات سلطة توقيف الأشخاص واحتجازهم دونما توجيه تهم أو إجراء محاكمات، وقد أدى هذا إلى مزيد من وحشية الجهات الأمنية. وإضافة إلى المسجونين السياسيين، تعتقل الجهات الأمنية أطفال الشوارع ويتعرضون للانتهاكات الجسدية والجنسية. ويخضع الصحفيون

والنشطاء والقضاة بل وحتى أعضاء البرلمان للسجن والعنف. وعلى الرغم من خطاب الإصلاح السياسى ودعوات الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى إلى تطبيق الديموقراطية، فإن الحكومة المصرية تحتفظ بعشرة آلاف موقوف محتجزين منذ مدد مستطالة دونما توجيه تُهم.

فى عام ٢٠٠٦، تلقت مصر من الولايات المتحدة ما قيمته ١,٣ مليار دولار مساعدات عسكرية [وأمنية] و٤٩٠ مليون دولار مساعدات اقتصادية. تقرّر هذه المساعدات العسكرية والاقتصادية ومعها مخطط العمل المشترك بين الاتحاد الأوربى ومصر للدفع بصفقة عملية السلام، وشن الحرب على الإرهاب، تقرر النفوذ الذى تمارسه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على مصر. يقال إن نظام مبارك يفرض إتاوة على «المجتمع الدولى» نظير دوره فى «الحرب على الإرهاب»، وكسمسار لهم فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. يرى مصريون كثيرون ممن يعانون الضيق الاقتصادى والقمع السياسى أن التواطؤ الوثيق بين النظام وبين الولايات المتحدة وإسرائيل يضمن الشرعية على معارضتهم له، وبخاصة أن البلاد تقترب من انتخابات ٢٠١١ الرئاسية.

مدى شعبية إيران فى مصر

كما ذهبنا فى الفصول السابقة، تشكل علاقات إيران بالحكومة السورية وحزب الله وحماس كتلة قوية ممانعة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة. وكما رأينا، فعلى الرغم من أن الحكومة العراقية الآن تجعل من العراق دولة عميلة للولايات المتحدة، فإن علاقات إيران الطيبة بالحكومة العراقية ودعمها للقوى المناوئة للاستعمار والمؤيدة للاستعمار معا أكسبتها نوعا من الأمن ضد التهديدات المحتملة من الولايات المتحدة وحلفائها والأهم هو أن دعم القواعد الشعبية فى المنطقة

لسياسات إيران المعادية للولايات المتحدة وإسرائيل تضع البلد فى موقع قوى للدفاع عن نفسها ضد أى هجوم محتمل. وعلى الرغم من الاختلاف السنى/ الشيعى، وعداء الحكومة المصرية لإيران، وتصوير الإعلام الرئيسى فى مصر والدول العربية لإيران على أنها قوة شيعية فى المنطقة تهدد الثقافة والهوية السنية، فإن إيران تتمتع بقدر لا بأس به من الشعبية فى مصر. يراها كثيرون نموذجا لهزيمة سطوة الدولة ونموذجا للممارسة الثورية. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أهمية الانقسامات بين القومية العربية مقابل القومية الإيرانية والاختلافات السنية الشيعية، فقد غيرت انتصارات حزب الله طبيعة تلك العلاقات. اكتسبت قناة المنار والسيد حسن نصر الله شعبية فى مصر. ونذكر فى هذا السياق كلام الشيخ القرضاوى عن تهديد إيران والمذهب الشيعى فى المنطقة والذى وجد أصداءً بالتأكيد لكنه أيضا ولّد كثيرا من الجدل فى مصر. فى عام ٢٠٠٨ ذهب الشيخ القرضاوى العالم السنى المصرى والداعية المؤثر المقيم فى قطر إلى أن إيران تنشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى فى المنطقة ومن ثم تهدد المجتمعات السنية. لم تأت تلك الاتهامات من النظام المصرى أو إعلام التيار الرئيسى بل من داعية حداثى مؤثر كان قد أصدر فتوى أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ٢٠٠٦ دعا فيها المسلمين إلى مناصرة حزب الله فى قتاله مع إسرائيل. كما عُرِف عنه أنه يرى أن المذهبين السنى والشيعى يتوافقان على المبادئ المهمة الأمر الذى زاد من شعبيته وبخاصة حينما دعا الجماعات السنية والشيعية فى العراق إلى إنهاء صراعها.

بيد أن تعليقاته بشأن إيران أثارت جدلا فى أوساط المثقفين العلمانيين والإسلاميين حتى أن بعض معجبيه ينقدون تعليقاته ويعتقدون

أنه وعلى الرغم من وجود اختلافات فقهية وتاريخية بين المذهبين فالخلافات القائمة اليوم هى سياسية لا مذهبية ويرون أن الوحدة ضد الصهيونية التى تدعمها الولايات المتحدة أكثر أهمية بكثير من الاختلاف الشيعى السنى. أخبرنى مصطفى، وهو عضو بجماعة الإخوان المسلمين بالقاهرة قائلاً:

«لا أومن أن الاختلاف السنى الشيعى قضية مهمة فقد كان الشيخ حسن البنا من أوائل الذين شجعوا التقارب بين السنة والشيعة وقال إن الشيعة هم الجناح الآخر للأمة ويجب أن تقوى العلاقة بين الاثنين. لا يعرف عامة المصريين الكثير عن الشيعة ويخلطون بينهم وبين الشيوعية لتشابه اللفظين. أما المتعلمون فيعتبرون الشيعة جزءا مهما من الأمة الإسلامية. قبل غزو العراق لم يكن أحد يذكر أى خلاف بين المذهبين ولم يكن ثمة انقسام، لكن الغزو الأمريكى أوجد الاعتقاد بوجود اختلاف خطير. علينا أن نتوحد ضد الصهيونية فى المنطقة. عملت الحرب على لبنان على تقارب السنة والشيعة والتآلف بينهم وفتح انتصار حزب الله فى تلك الحرب أعين المصريين على الحقائق».

أيضا، بينت لى أهداف الناشطة فى الجمعيات غير الحكومية الإسلامية والتى تزوج ابنها فتاة شيعية من لبنان، أنه:

«طالما يؤمن الإنسان بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ونبيّه، فهو مسلم. نُعلم أحفادنا أن يؤدوا الصلاة بالأسلوبين. من المفيد أن تشكل إيران قوة فى المنطقة، فالبلدان الإسلامية بحاجة لقوة تتصدى لإسرائيل. لا يجوز أن نسمح للقوى الأجنبية ببث الفرقة بيننا، علينا أن نتوحد. وعلى الرغم من أن إعلام التيار الرئيسى يهاجم إيران والشيعة، إلا أن غالبية الشعب ينظرون إلى نضال حزب الله وإلى موقف إيران ضد إسرائيل ولا يصدقون الإعلام».

تمثل فلسطين قضية مهمة للشعب المصرى، وتنظم الحملات الشعبية دعما للفلسطينيين على الرغم من الأزمات الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية الداخلية، وعلى الرغم من محاولات سياسيى التيار الرئيسى وإعلامه إبعاد أنفسهم عن القضية الفلسطينية بذريعة أن للمصريين مشاكلهم وليس عليهم أن يدعموا الفلسطينيين. زاد دعم المصريين للفلسطينيين منذ عام ٢٠٠٥ لدى انسحاب إسرائيل من غزة، وفى كل مرة تهاجم فيها إسرائيل فلسطين أو لبنان يتزايد دعم المصريين للشعبين. أثناء حرب إسرائيل على غزة فى بداية ٢٠٠٩، كان رد فعل الحكومة المصرية هو نشر ٧٥٠ رجل أمن مسلح فى شمال سيناء لمراقبة الحدود مع غزة. ومع عجز الحكومة المصرية عن الحفاظ على مصالح البلد الاقتصادية والسياسية وتعزيزها، يعمل دعم إيران لفلسطين ولبنان على زيادة وعى المصريين بالموقف المتردى. قالت لى جيهان، العضو فى حزب الكرامة، والتى شاركت فى حملة لدعم أهالى غزة:

«لقد نظمنا قوافل تحمل ٤٠ طنا من الإمدادات الطبية لشقيقاتنا وأشقائنا فى غزة. طالبنا بطرد السفير الإسرائيلى وفتح معبر رفح لنقل المساعدات الطبية وإمدادات الإغاثة إلى شعب غزة. كانت القوافل تضم عمال بناء، وكهربائيين، ومعماريين لإعادة إعمار غزة. إن إغلاق معبر رفح وعدم السماح بوصول تلك الإمدادات إلى غزة جريمة يرتكبها النظام. وعلى عكس مصر، تتصدى إيران لأمريكا وإسرائيل، وعلى الرغم من أنها ليست بلدا عربيا فإنها تقوى مطالب العرب فى المنطقة. إنها بلد يسعى لاستقلاله ويحرص عليه. وقد تمكنت من بناء قدراتها العسكرية كى تستطيع مواجهة أمريكا والعدو الصهيونى. تبذل الحكومة المصرية جهدها لتصوير إيران على أنها هى عدو الأمة العربية وأنها تمثل تهديداً

أكبر مما تمثله إسرائيل. لكن غالبية المصريين لا يصدقون تلك البروباجندا. علينا أن نقوى وجودنا كقوتين متمايزتين – إيرانية وعربية كى نواجه إسرائيل وأمريكا. يحاول الإعلام الحكومى خلق فجوة أكبر بين المذهب السنى والشيعى، لكن بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى البلد الوحيد الذى يتصدى لإسرائيل ونحن نُعجب بها لذلك».

علقت أمانى من الاشتراكيين الثوريين قائلة:

«بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى الدولة التى أغلقت السفارة الإسرائيلية بعد ثورة ١٩٧٩ وطردت السفير الإسرائيلى وفتحت سفارة للفلسطينيين ومضت تدعمهم منذ وقتئذ. وفى هذا السياق فإن العلاقة بين السنة والشيعة أقوى من أى وقت مضى».

عبّر حسام من الإخوان المسلمين عن آراء مماثلة:

«إيران بلد لا تخضع للهيمنة الأمريكية على المنطقة، وبإمكانها صنع قراراتها المستقلة. يحترم المصريون إيران لدعمها حركات التحرر فى المنطقة ويرونها نقيضا تاما للنظام المصرى. أتمنى لو فعل النظام هنا ما تفعله إيران. تحاول حكومات المنطقة والإعلام العربى تصوير إيران على أنها العدو. لكن اعتداءات إسرائيل المستمرة على الفلسطينيين تخلق صورة إيجابية عن إيران. يدعم كثير من المصريين قدرات إيران النووية ويعتقدون أن على مصر أن تمتلك مثل تلك القدرات لأننا نجاور إسرائيل التى تمتلك ترسانة نووية تمثل تهديدا حقيقيا لنا. يجب أن تتوحد إيران وتركيا والعالم العربى فى مواجهة إسرائيل والإمبريالية الأمريكية».

ورغم إعجابهم بإيران، ينقد كثير من المصريين دورها فى العراق. ومثل الفلسطينيين يرون فى تركيا النموذج الحقيقى وبخاصة منذ أن غيرت مواقفها ودعمت الفلسطينيين. يقول سامح:

«أشيد بإيران لدعمها حركات التحرر بالمنطقة لكننى أنقد دورها فى العراق، كما أننى مستاء من روابط الحكومة التركية العسكرية والاقتصادية مع إسرائيل، لكن حرب غزة أدت إلى تغير علاقة تركيا بإسرائيل، كما أن تركيا نموذج صالح إذ إنها شاهد على أن بإمكان حركة إسلامية أن تتولى السلطة. أُعْجب أيضا بالأسلوب التركى لعلمنة المجتمع. ومن هذه المنطلقات، فأنا أفضل تركيا على إيران».

مازالت القومية المصرية والقومية العربية تمثلان قوى مؤثرة فى مصر، ويميز الكثيرون بين القومية والوطنية والدولة – فقد فقدوا الثقة فى أن تحميهما الدولة. وفى نفس الوقت، يؤمن الإسلاميون وغيرهم بالقومية الإسلامية وبأنهم ينتمون إلى العالم الإسلامى بأجمعه، من ثم، فإن فكرة العلاقات الطيبة بين إيران وتركيا والعالم العربى قد اكتسبت شعبية كبيرة. بعد غزو أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣، ظلت مصر ممانعة فى إقامة علاقات مع النظام العراقى الجديد فى وجود روابطه بإيران. بيد أنه فى نهاية ٢٠٠٩ وبداية ٢٠١٠، فتحت الحكومة المصرية علاقات تجارية مع العراق من أجل تقليص النفوذ الإيرانى هناك. بيد أن مصريين كثيرين يرون أن الروابط بين إيران وتركيا والعالم العربى من شأنها أن تعمل على تقوية المنطقة فى مواجهة الصهيونية وداعميها الغربيين، وكما يؤكد كثير من المصريين والفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين تكرارا «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب».